الصاروخ ، ذراع مصر المكسور !

بقلم: رائف محمد الويشى

19 فبراير 2011

ما أن انطفأت نار الحرب العالمية الثانية في صيف عام 1945 حتى هرع المنتصرون إلى تحليل النتائج المستخلصة منها ، كانت أولى تلك النتائج هي ميلاد عصر القنبلة الذرية ، وهو عصر ما زال حتى اليوم يلقى بمفاجآته ..

كان للصاروخ النتيجة الثانية في تلك الحرب لما أحدثه من تأثير هام على الجبهتين الإنجليزية الألمانية والسوفيتية الألمانية .. فقد دك هتلر العاصمة البريطانية لندن بصاروخ أعتبر في حينه أحد أهم مؤثرات تلك الحرب ، وقد أنتج الألمان منه طرازين وهما V1 (مداه 260 كم ورأسه تزن 2 طن) ثم V2 (مداه 350 كم ورأسه تزن طنا واحدا) ، وقد أوقع كلا الصاروخين على مدى ثلاث سنوات 70 ألف قتيل وجريح في لندن ، أما على الجبهة الألمانية السوفيتية فكان الصاروخ كاتيوشا الذي استخدمه السوفييت في هجومهم المضاد حاسما في شل فعاليات الجيش الألماني السادس الذي وصل إلى مشارف موسكو ، فوقع جميع أفراده ضحية للقتل أو الأسر أو الموت جوعا أو بفعل البرد ، رغم كون أفراد هذا الجيش من قوات النخبة تدريبا وتسليحا في كل جيوش هتلر ..

لجأ المنتصرون إلى فكرة استبدال الطائرة التي تحمل القنبلة الذرية بصاروخ ، فهو أقل تكلفة بكثير من الطائرة ، كما أنه أقل خطرا منها كونها عرضة للسقوط أو الإسقاط في الأجواء التابعة لها .. من هنا زادت أهمية الصاروخ كحامل لشحنة بريدية شديدة التأثير وربما الحسم إلى العدو ..

أصبح الصاروخ منذ أواخر أربعينات القرن الماضي هو الجزء المكمل للقنبلة النووية ، تفوقت أمريكا فيه بسبب لجوء فريق علماء الصواريخ الألمان إليها بعد هزيمة هتلر وعلى رأسهم كبيرهم د. جون براون (هو من أوصل الأمريكيين إلى القمر) .. كانت بقية دول العالم تراقب المنتصرين وتبذل الجهد لتأمين نفسها في هذا الصراع القاتل بإجراء التجارب والأبحاث على صناعة الصاروخ لمحاكاة الكبار في إنتاجه ..

نحن الآن في مصر فى بداية ستينات القرن الماضي .. حركة البناء الوطني تسير بمعدلات عالية وعلى كل الأصعدة ، في المجال الزراعي زادت الرقعة الزراعية وحققت قرارات الإصلاح الزراعي الكثير من العدالة الاجتماعية لشعب مصر حيث كانت أغلبيته العظمى أجراء – أو قل كعبيد – في مزارع الأقلية الغنية ، في المجال الاقتصادي كان الموقف راضيا إلى حد بعيد وربما بجودة أفضل من مثيلتها في المجال الزراعي ، فقد زادت وتيرة التصنيع الوطني ، أما في المجال الاجتماعي فكان من الطبيعي أن يكون الهدف الوطني في قلوب المصريين قد ارتفع إلى قمته ..

اهتمت القيادة المصرية في تلك الأوقات بالصاروخ ، كان غرضها هو إحداث نوع من التوازن العسكري مع التفوق الإسرائيلي في الجو والذي هو موضع افتخار كانت تتمتع به إسرائيل ومازالت حتى اليوم .. بدأ العمل بحذر مع بعض علماء من ألمانيا لإنتاج صاروخ يصل مداه إلى 300 كم ..

المؤرخ العسكري الأمريكي " أوين سيرز " كتب كتابا هاما بعنوان " ناصر وعصر الصواريخ في الشرق الأوسط " ، تأتى أهمية

هذا الكتاب في أن صاحبه عمل محللا في المخابرات العسكرية الأمريكية ، وهو ما أتاح له الحصول على ثروة من المعلومات التي كانت في حوزة المخابرات الأمريكية والإسرائيلية عن برنامج الصواريخ المصري ، وقد ازدادت خبرته ثقلا عندما عمل بعد ذلك في معهد دراسات الشرق الأدنى في العاصمة واشنطن .. يقول سيرز في كتابه الهام ما يلي :

" إن اتجاه عبد الناصر إلى تدشين برنامج للصواريخ لم يكن بسبب طموحاته الشخصية ، ولكن بسبب إدراكه لحاجة مصر الملحة إلى قدرة عسكرية تمكنها من ضرب إسرائيل في العمق بحيث لا تتمكن أنظمتها الدفاعية من صده .. لقد بلورت نظرة عبد الناصر تلك بعد حرب 1956 ، فقد اتضح له أن ضرب عمق إسرائيل هو وحده الذي سيجعلها تفكر ألف مرة في مراجعة نفسها قبل القيام بأي مغامرة عسكرية جديدة ، ولما اصطدمت طموحات ناصر بتواضع المستوى التكنولوجي المصري في هذا المجال ، اتجهت أنظاره للاستعانة بعلماء الصواريخ الألمان ، تدفق على مصر الكثير منهم بمجرد دعوة عبد الناصر لهم .. لقد نجح العلماء الألمان في خلق قاعدة لصناعة الصواريخ في مصر ، لقد كان عنصر الضعف لدينا هو أنه بمجرد علم المخابرات الإسرائيلية والأمريكية بهذا البرنامج أصابتهما حالة من الغليان ، وازدادت حالة الهستيريا لديهما عندما نجح عبد الناصر في تدشين تجارب إطلاق الصواريخ المتطورة على يد العلماء الألمان في عام 1962 " ..

كانت دول الغرب تراقب التطورات النهضوية الكبيرة في مصر منذ منتصف الخمسينات ، كانوا يعلمون أن تلك النهضة تعتبر تهديدا مباشرا على إسرائيل وهو ما يعنى تهديدا مباشرا لهم ، من هنا كانت الرغبة الدائمة لدى تلك الدول بألا تخرج مصر من سيطرة الغرب ، فإذا ما خرجت وجاء من يقودها نحو تحررها واستقلال قرارها ، فلابد أن يكون مهزوما أمام شعبه ومنشغلا في حروب مختلفة الأصعدة والمنشأ حتى لا يفيق منها ..

هم حاولوا تطبيق تلك الخطة في 1956 وفشلوا ، كما حاولوا فرض حصار مصر اقتصاديا على بعدم تمويل للسد العالي وفشلوا أيضا .. خرج عبد الناصر من تلك المحاولتيْن أكثر قربا إلى شعبه وأصبح مثلا لعمليات التحرر في الكثير من قارات الدنيا التي ترزح بلدانها تحت ظلم الاستعمار ..

رغم فشل المشروع المصري مع العلماء الألمان بفعل قتلهم أو تهديدهم ، إلا أن الغرب ومعه إسرائيل كانوا على ثقة بأن الفكرة لن تغادر عقل عبد الناصر وأنه سيتغلب علي كل تحدياتها ، كما فعل من قبل .. هنا جاءت المحاولة الثالثة لهم والتي تمثلت في عدوان يونيه1967 ، ظنوا أنه لن تقوم قائمة لمصر لسنوات طويلة بسبب الخسائر التي وقعت في هذا العدوان ، لكن المفاجأة هي أن الشعب المصري – ومن ضمنه الجيش – قد رفض الاستسلام ، وأن قائده الذي كان من المفترض أن يسقط سقوطا مدويا قد نهض ونظم صفوفه بعد تطهيرها من كثير من شوائبها ومخلفاتها ..

أظهرت حرب الاستنزاف حقيقة معدن الشعب المصري.. وصلت تحليلات بعض القادة العسكريين في إسرائيل إلى أن عبد الناصر قد أوقع إسرائيل في فخ بتشتيت قواتها في رمال سيناء ، وهو ما أدى إلى عسكرة المجتمع الإسرائيلي بتعبئة وحشد قوات كبيرة تملأ هذا الفراغ الجديد في سيناء .. قالوا أن الاستيلاء على الضفة الغربية وهضبة الجولان كان يمثل هدفا عسكريا ثمينا لهم ، فالضفة بها القدس وما تمثله لهم والهضبة تشرف على مدن الشمال في إسرائيل ودمشق ومن يسيطر عليها يسيطر عليهما ، لكن احتلالهم لسيناء قد أوقعهم في بئر عميق وأجهد ميزانيتهم العسكرية وزاد كثيرا من معدلات التجنيد في صفوف شعبهم ..

وضع اللواء عبد المنعم رياض – رئيس الأركان المصرية حينها - تصوره لتحرير الأرض ، سنسترد الأرض بالصاروخ .. هكذا تكلم فأوجز أمام الرئيس جمال عبد الناصر ..

بني اللواء رياض تصوره على أن نقطة ضعف جيش مصر تكمن في قواتها الجوية وهى في ذات الوقت تعتبر نقطة القوة التي تتمتع بها إسرائيل ، فإذا ما حصلنا على صاروخ للدفاع الجوى ، فقد سيطرنا بذلك على تفوق إسرائيل الجوى وأجبرناها على المنازلة على الأرض ، وهى جبهة يستطيع الجيش المصري الصمود بها وتشكل نقطة ضعف لدى إسرائيل بسبب قلة العامل البشرى عندهم ..

كان الإسرائيليون يتفوقون علينا أيضا في القوات البرية بسبب تفوق مدرعاتهم على مثيلتها لدى الجيش المصري ، بالإضافة إلى أن

جيشهم يعتبر محمولا ، بينما يمثل جنود المشاة في الجيش المصري 40 % من تعداد قواتنا البرية .. جاء الصاروخ آر بى جى ليحل تلك المشكلة وتعامل مقاتل المشاة المصري بصاروخه مع المدرعات الإسرائيلية ..(راجع الحلقة الأولى من دراسة من خمس حلقات بعنوان " حرب أكتوبر ، وضرورة لجان التحقيق المستقلة " لكاتب المقال) ..

وصلت جاهزية مصر إلى قمتها في أغسطس 1970 .. كانت المرة الأولى منذ إنشاء إسرائيل التي تتمكن فيها مصر من تقليل الفجوة العسكرية بينها وبين إسرائيل وتصل إلى قرار بالحسم العسكري معها ..
كان الصاروخ أرض جو بأنواعه الثلاثة – سام 2 / سام 3 / سام 6 - يقف وراء هذا الموقف المصري يشد من صلابته وعزيمته على جبهة القتال المشتعلة ، أثبت الصاروخ هذا الحسم على أرض الواقع ، ففي يوليو 1970 أسقط العديد طائرات الفانتوم الإسرائيلية والتي كانت تمثل في حينه قمة التكنولوجية الأمريكية .. (راجع مقال " حائط الصواريخ الذي كان هناك ، في ذكراه الأربعين " لكاتب المقال) ..

كان الموقف الجديد على الجبهة المصرية ينبأ عن كارثة كبرى لإسرائيل ومعها دول الغرب والتي كانت في حينه تمدها بالكثير من وسائل البقاء .. لقد تمكنت مصر من الوصول إلى مستوى الحسم العسكري مع إسرائيل وهو ما يفتح الباب على مصراعيه لزوالها وبالتالي يضع مصالح الغرب في المنطقة في مخاطر كبيرة ، يضاف إلى ذلك ما قد يحدثه انتصار مصر من زيادة فعالية المد الثوري في مناطق مختلفة من دول العالم التي تقع تحت سيطرتهم ..
هاهو عبد الناصر ينهض ويبنى جيشه الذي انهار منذ ثلاث سنوات ويصل به – من خلال الخطة جرانيت – إلى قرب اتخاذ موقف الحسم في الميدان (احتاجت ألمانيا التي انهزمت في الحرب الأولى إلى عشرين عاما كي تقف على قدميها مرة أخرى) .. وبعد هذا الحسم سيحقق مشروعه القديم في إنتاج الصاروخ الذي يهدد عمق إسرائيل ، لابد أنه سيزداد تصميما بعد ما حدث في 67 (كتاب سيرز السابق) ..

تبقى لدي الغرب ورقة واحدة كمحاولة رابعة وأخيرة لإدخال مصر إلى حظيرتها ، كانت خلية نائمة في كوادر الصف الأول لعبد الناصر تم تجنيدها في أواسط الستينات ، إنه أنور السادات .. يقول السيد حسين الشافعي أن عبد الناصر تعرض لضغوط خارجية شديدة من أجل تعيين أنور السادات ليكون نائبا له ..

سيطر أنور السادات على سدة الحكم في مصر بعد رحيل عبد الناصر بأسلوب يغلب عليه التآمر ، لكن المخابرات المصرية وضعت يدها في الشهور التي تلت اعتلائه الحكم على أكثر من دليل يؤكد على أنه يعمل لصالح وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ..

كان عام 1971 هو عام العواصف في مصر ، فقد وصلت قناعة القيادتين السياسية والعسكرية في مصر إلى أن السادات يعمل لصالح المخابرات المركزية الأمريكية ..
أطلق السادات جملته المشهورة " عام 71 سيكون هو عام الحسم مع إسرائيل " ، كان كمن يحاول إثبات عدم عمالته أمام زملائه ، لكن معرفته في أبريل71 بالعملية " عصفور " التي كانت تقوم بها المخابرات المصرية في السفارة الأمريكية ومنذ أكتوبر 1967 كان قد عجل باعتقال تلك القيادات ، كان لا يعلم بحجم تلك المعلومات التي جمعتها المخابرات المصرية عنه شخصيا منذ أن تولى الحكم ، هو قال في خطاب عام " اتغديت بيهم قبل ما يتعشوا بى " ، لم يتوقف الشعب المصري كثيرا أمام تلك العبارة ..
(راجع مقال " في ذكرى اغتيال الفريق الليثى ناصف ، إصحى يا شعب " لكاتب المقال) ..

أطل العام 72 برأسه وفي مارس وضعت المخابرات العسكرية التقارير أمام أنور السادات التي أكدت نية بعض الطيارين بالقيام بانقلاب بسبب سلوكيات السادات في تأجيل الحرب وانتشار الأنباء عن عمالته لأمريكا ..
في 22 أبريل أقال السادات اللواء على البغدادي قائد الطيران وعين بدلا منه اللواء طيار حسنى مبارك للحيلولة دون قيام هذا الانقلاب ولمواجهة وزير الحربية – الفريق محمد صادق – والذي بدأ يشعر بالضيق من سلوكيات السادات وما يشاع عنه بين جهاز المخابرات ..
كان معروفا عن اللواء مبارك أنه ضابط منعزل وغير اجتماعي ويتجنبه الكثير من زملائه بسبب ما عُرف عنه من استخدامه الوشاية بهم بوضع تقارير أمنية في حقهم ، لقد كان قريبا من الأجهزة الأمنية داخل هذا السلاح الحساس ، ويفسر هذا تسلقه السريع فى

الترقيات ..

سيطر اللواء حسنى مبارك على ضباط سلاح الطيران ونقل الكثير منهم إلى مواقع بعيدة عن العاصمة وبعضهم نقل إلى ليبيا والسودان ، لكن الموقف اشتعل في القوات البرية مرة أخرى بسبب تأجيل أنور السادات لقرار الحرب واستمرار انتشار الأنباء عن عمالته ، وقد وصل إلى ذروته في مساء 12 أكتوبر عندما دخلت بعض دبابات الجيش إلى قلب القاهرة بقيادة النقيب على حسنى عيد وبقيت في مواجهة مسجد الحسين حتى تمكنت قوات المنطقة المركزية من السيطرة عليها ..

في 26 أكتوبر 1972 عزل أنور السادات وزير الحربية – الفريق محمد أحمد صادق - وأتى باللواء أحمد إسماعيل ، خرج مع الفريق صادق قادة الكثير من الأسلحة وكذلك بعض قادة الفرق (نائبه اللواء عبد القادر حسين وقائد البحرية اللواء محمود على فهمي وقائد المنطقة المركزية اللواء على عبد الخبير وسبقهم العميد عادل سوكه قائد الفرقة المدرعة 21) .. كانت عمليه تطهير شاملة وغير مبررة ، لكن الهاجس الذي صاحب السادات بالقبض عليه ومعرفة أسرار تجنيده جعله لا يثق في أحد ..
(راجع مذكرات الفريق صادق وأحاديثه الصحفية حيث أكد أن السادات كان يخفى مسدسا تحت أوراق الجرائد عند الاجتماع به)..

لقد أتى السادات باللواء أحمد إسماعيل كي يكون وزيرا للحربية رغم معرفة السادات جيدا بعدم كفاءته لطرده مرتين من الخدمة (عقب نكسة 67 وعقب حادثة الزعفرانة بالبحر الأحمر في عام 1969) وبأنه العدو اللدود لرئيس الأركان اللواء سعد الشاذلي (سبق لهما أن تشابكا بالأيدي) .. كان قرار اختيار إسماعيل يؤكد أنه بغرض تأمين السادات رغم مخاطرة في خلق حالة من عدم الانسجام بين الوزير ورئيس الأركان مما سيكون له التأثير الخطير على أداء الجيش ، لكن رعب السادات من القبض عليه كان يفوق كل اعتبار ..

في 11 نوفمبر 1972 لعبت الصدفة وحدها الدور الكامل في اكتشاف خلية من كبار قادة الجيش والمخابرات كانت على وشك القيام بانقلاب عسكري والقبض على السادات بسبب ما تحت أيديهم من وثائق تثبت عمالته مع أمريكا (كانت قيادة الانقلاب تسمى نفسها جبهة إنقاذ مصر وكانت مكونة من مدير المخابرات الحربية اللواء محرز مصطفى وبعض العمداء من قادة الفرق والعقداء من قادة الصاعقة ، وقد فشلت بسبب شكوك ضابط في المخابرات الحربية برتبة نقيب في تصرفات أحد قادتها فتم مراقبته والقبض على جميع قادتها) ..

كانت أمريكا تتابع بقلق ما يجرى داخل الجيش المصري من محاولات انقلابية ، صحيح أن السادات كان قد تغلب عليها ، لكن لا يمكن التنبؤ بحجم المحاولة القادمة والتي قد تأتى بقائد عسكري أشد من عبد الناصر .. أنور السادات هو رجلهم الذي زرعوه داخل القيادة السياسية ولن يتركوه إلا بعد تحقيق ما لا يقبله إلا العملاء من المصريين .. كان المطلوب هو ما يلي :
1- إنهاء حالة الحرب بين مصر وإسرائيل ، وهو ما يعنى عمليا إنهاء الحرب بين العرب وإسرائيل ، وبالتالي ضياع المقدسات ..
2- إقامة علاقات على كل الأصعدة بين مصر وإسرائيل ..
3- تجريد سيناء من الجيش المصري لإثبات نية مصر في عدم قيام أي اعتداء في المستقبل ..

لتحقيق تلك الأهداف الثلاثة كان لابد من قيام الحرب أولا بغرض إشباع كبرياء مصر شعبا وجيشا ، ثم تأتى التفاصيل في وقتها ، وهذا هو ما حدث تماما :

* **ففي الأسبوع الأول** يطلق السادات العنان لجيشه المشتاق لتحرير الأرض فيتمكن أفراده - بحماية من مظلته الصاروخية التي تبعد عنه بطش الطيران الإسرائيلي - من العبور وتحقيق المفاجأة ، ويشعر الجيش والشعب بنشوة الانتصار واسترداد الكرامة ..

* **وفى الأسبوع الثاني** يأمر السادات جيشه بالتوغل في سيناء (وهو ما يعنى الخروج من مظلة الصواريخ) .. يرفض القادة الميدانيون التنفيذ لأنه يعنى الانتحار بعينه فيهددهم بالمحاكمات العسكرية .. ينفذون أوامره الخيانية فينكشف الجيش في جوف الصحراء وتدمر أغلب معداته ويستشهد الآلاف من قادته ثم يحاصر الجيش الثالث ، ويكاد الجيش الثاني أن يواجه نفس المصير لولا تدخل أمريكا لدى إسرائيل حيث أكدوا لهم أن المكاسب السياسية من تنفيذ سيناريو كيسنجر تعلو بكثير أي مكاسب عسكرية ..

* **في الأسبوع الثالث** يعلن أنور السادات بأنه سيتفاوض مع الإسرائيليين من أجل فك حصار 45 ألف مقاتل معرضين للموت جوعا وعطشا .. يؤيده كل المصريين في الشوارع والذين كانوا ما زالوا يرقصون من نشوة ما حدث في الأسبوع الأول ، غير مدركين بما جرى في الأسبوع الثاني والثالث (راجع الحلقة الثانية من دراسة بعنوان " الصهيونية العربية ، من الهاشميين إلى مبارك " لكاتب المقال) ..

* **تأتى المرحلة الأخيرة** من السيناريو المعد سلفا في يوليو 1977 وهو الإعلان عن زيارة السادات لإسرائيل ، يتم توقيع الاتفاقيات لتحقيق الأهداف الثلاثة ويزيد عليها السادات فيغدق علي الإسرائيليين بكرمه ، غير عابئ ببكاء وتوسلات وزير دفاعه (راجع المشير عبد الغنى الجمسى في مذكراته ص 482 / 500) أو باستقالات الكثير من مساعديه السياسيين بعد التشكيك في وطنيته (إسماعيل فهمي – إبراهيم كامل – محمد رياض) وقد أكد بعضهم على عمالته لأمريكا (راجع مذكرات حسن الزيات وزير خارجيته الأسبق) .. وتنتهي قضية القدس ..

تنشط الدعاية الساداتية بين أطياف الشعب المصري - والذي تضرب في أعماقه الأمية بنوعيْها الحرفي والثقافي – لغسل أدمغته وتزعم بأن عبد الناصر هو رجل الخسائر الذي أضاع سيناء مرتين وأن السادات هو رجل الحرب الذي استرد سيناء ورجل السلام الذي سيحقق الرخاء .. ينشط السادات في خطبه ويردد بأن حرب أكتوبر هي آخر الحروب مع إسرائيل ، وهو ما يعنى على أرض الواقع بأنه لا حاجة لمصر إلى الصاروخ مرة أخرى .. لقد انكسرت ذراع مصر ..

واصل دول الغرب بعد رحيل السادات على استمرار نظامه ، لابد أن يكون قائد مصر عميلا وبنسبة 100 % .. تختلف نسبة الخيانة من دولة عربية إلى أخرى ، لكنها في مصر لابد أن تكون في تمام اكتمالها عمالتها .. ولأن الشعب ما زال يقاوم ويرفض إسرائيل ، إذن لابد من دفع هذا القائد إلى نهب مقدرات مصر لإضعافها ، وهو ما يعنى إضعاف جيشها بغرض إفشال أي محاولة مستقبلية لبنائه لاسترداد المقدسات ، أما الشعب فلابد من كسر إرادته بالثلاثية المعروفة عالميا (التجويع – الإشغال بالجنس والمخدرات وكرة القد - ارتكاب جرائم ضد الإنسانية بحقه) ..

للحديث بقية ..

رائف محمد الويشى
سانت لويس – ميزورى – أمريكا
elwisheer@yahoo.com
تابع مقالات سابقة لكاتب المقال على مدونته " ثوار مصر " وعنوانها كما يلي :
www.thowarmisr.com